لعبة الخوف ...

قصة بقلم حسن محسب

التصق بجدار مليء بالثقوب ، محاط بالهدد . التصقت ذقنه بياقة قميصه المبتلة . تدحرجت انفاسه لاهثة . عوى كلب هزيل ناحل الشعر وانكمش خلفه . عادت الارض تهتز .. بم بم .. يووو ...

صاح صبي يحمل على راسه جريدة الخبز : « الصواريخ العميا..» وانطلق بدراجته في اتجاه المخبأ . « بم » خرساء هذه المرة .. تصدع جدار عمارة في نهاية الطريق .. توالت الانفجارات ممتزجة بالانهيار والهدد .. قفز الكلب الهزيل ، وفي لمحة كان يختفي في المخبأ . احس بوحدته .. ازداد التصاق ظهره المبتل بالعرق الى بقايا الجدار .

ـ « الوقفة هنا خطر .. »

ـ « اردت ان اقول له انها فرصة العمر .. »

ـ « .. من مصر الصديقة ؟.. »

« قلت اقدم له بطاقتي الصحفية .. ترددت .. »

.. ـ تبادل الشابان الطويلان الشاحبان ، ابتسامة غامزة . حاول ان يبتسم لهما .. لكنهما اسرعا الى المخبأ .

.. انهار جدار قريب ، كشف الغبار ـ بعد لحظة ـ عري البيت القديم .. استطاع ان يميز وقع العصا الفليظة على الاسفلت المهشم . رفع ذقنه قليلا عن ياقة القميص . التقت عيناه بساق الرجل .. الوحيدة .. تقفز بالتبادل مع عصاه . توقفت الساق والعصا امامه .. اتجهتا اليه .. لفحتوجهه انفاس الرجل ، ورائحة الشيشة والبصل..

سادت نغمة الانهيار من حوله .

ـ « المخبأ اكثر أمنا ياولدي .. »

ـ ...« تركز اهتمامي كله على بضاعة الرجل .. »

عاد يقول : « العمر لايضيع هدرا .. »

... « ماأشهى السميط والبيض في صندوقه الخشبي الصغير!»

يئس الرجل . ابتعدت عصاه وساقه الوحيدة ، في ايقاع مضطرب .

* * *

..في ثانية واحدة ، تناثرت العربة الكارو .. واشلاء صاحبها .. على الاسفلت . خارت قوى الحصان العجوز .. حمحم وسقط مذبوحا بجوار الاشلاء .

.. حدق طويلا في خيوط الدم . تابعها وهي تنساب متعرجة الى حفر الطريق . صدم احد الخيوط الداكنة الساخنة بقطعة صلب ... تلفت حوله .. اندفع رأسه .. صدره .. ذراعاه .. ثم ساقاه وقدماه ..اقترب من الحصان المذبوح . اتسعت عيناه . انتفض جسده المبتل بالعرق والدم . رفست قدماه الهزيلتان ، الهواء المثقل بالتراب ثم سكنت حركته .

* * *

.. كنت فرحا بنجاحي في امتحان القبول . كنت اصر على ان اسوق العربة وحدي هذه المرة . انشغل ابي في حفر السياج في الزريبة . لم انصت طويلا لتحذيرات امي .. قفزت مرحا خفيفا الى عريش العربة . التقطت اللجام والكرباج من القربوس فوق ظهر الادهم. على عرين العربة جلست مدليا ساقي في معلمية . لسعت الحصان بالكرباج الكنبريت وصاح صوتي في الادهم بنزق : « شي .. ى..ى». فاندفع رافعا أذنيه في ثقة كبيرة .

.. صرخت دجاجة جارتنا ام الباز ، ثم رفرفت بجناحيها وماتت في مجرى عجلة العربة . اشتبكت ام الباز وامي في عراك طويل .لامني أبي ، وهدد بقصف رقبتي عندما اعود من الحقل . حاولت تبرير ماحدث لكن أبي شوح براحته المفطاة بروث البهائم ، وبصق في راحته الاخرى، وعاد يعزق الزريبة بفأسه .

* * *

.. انحنى بجوار رأس الحصان العجوز . اغمض عينيه .. كان جفناه ساخنين .. اختفى بياض عينيه . بحث عن رأس صاحبه .. فكر ان يذهب الى المخبأ . كانت اكوام الهدد تزداد ارتفاعا ..

.. عادت اختي من الحقل صارخة . صراخها لم الشارع كله امام الزريبة . لطمت امي وجهها .. صبغه الطين بالسواد . خلع أبي قميص الشغل .. وجرى زاعقا : « ياخراب بيتي .. »

.. في ترعة ام شوشه ، كان الادهم غريقا ، والعربة بحمل السياخ تلصقه في الطين . سقط الرجال في الترعة ، خوضوا في الماء ، واحضر احدهم « شرشرة » وقطع الاحزمة وحملوا الادهم الى الشط .

.. التقطت شاطية صغيرة بجوار رأس الحصان المذبوح ..كانت ملوثة بدمه . أطبق عليها أصابعه. حاصرته الانفجارات . اتجهت قدماه الى الرصيف . ارتمى على كومة احجار خلف جدار . انغرست في ساقيه مخالب قطة .. أبعد قدمه عن ذيلها .. لملمته حول مؤخرتها ، وغطست خلف حجر كبير . لم يعد يسمع تنفسها .

.. ملا التراب عينيه . لفه الظلام فجاة . انهار جدار قريب .. قفزت القطة . اصطدمت براسه .. تجاوزته واختفت في لمحة .

.. عندما عثروا عليّ بعد بحث طويل ، وجدوني في كومةحلفاء على شاطىء الترعة الاخر .. كانت رائحتي تثير القرف .. وكان سروالي مبتلا .. ضربني أبي حتى أدمى وجهي بسبب ذلك ، وحمل جثة الادهم

.. وضعها على العربة وجرها بمساعدة أمي .. وفي الجرن سلخ الفرابلي جلده .

***

.. خلف حجر ، بال ، ثم استدار وجلس في مدخل بيت متهدم .. فكر في شراء سجائر . اكتشفت انه جائع .. تذكر بائع السميط والبيض الاعرج . كانت الشاطية في راحته . اصابعه تطبق عليها . تناثر الغبار . اغمض عينيه .

.. فجأة . خيل اليه ان أحدا يغني . فتح عينيه . رآه صبيا صغيرا يحجل أمامه .. ويغني : « بم بم .. بم بم . » توقف الصبي وسأل : « ماما .. ماما .. انت خايفة ؟!.. »

كانما الاشياء بداخلي تتلاحق . جذبتني براءة الطفل . وقف امامي لايخفي دهشته . ابتسمت له .. ابتسم .. ضحك ، ونظر الى امه .. اهتزت الارض تحتنا وتشقق الجدار . اتجهت سحابة دخان راكنة نحونا . وجدتني احتضن الطفل وامسك امه بيدي . سرنا كالخرس .

.. في ثانية ، صرخت المرأة وغطت عينيها بيدها .. وجحظت عينا ابنها وازداد انكماشه في صدري .. وبال على نفسه . كان بائع الخبز على دراجته يندفع امامنا .. تدحرج راسه فجأة على الاسفلت وطرطشت الدماء الساخنة . قبل ان ادرك ماحدث صدمت الدراجة بشريط السكة الحديد .. سقطت وبائع الخبز فوقها بلا راس .لاحظت ان يديه لم تفلتا « الجادون » .

ـ « شيء فظيع !.. » وصمتت كمن يتلوى مكتوما . اردت ان اقول لها : « اننا في مصيدة .. » ، لكنني عجزت عن الكلام . اكتفيت بان هززت راسي . اضافت المرأة كلمة او كلمتين .. لم اتبينهما . لف الطفل ذراعيه حول عنقي .. ونام .

.. انهار جدار كشف عن عنكبوت دورة المياه ، ثم غاب كل شيء في التراب ..

ـ « المخبا ..؟!» .

ونظرت اليها . رفضت الفكرة برأسها . واصلنا سيرنا . شريط السكة الحديد يمتد بجوارنا بطول « الكورنيش » .. بور توفيق على مرمى البصر . كانت رائحة الاحتراق تزكم انفي . اظلتنا سحابة كثيفة السواد .

قالت : « الزيتية تحترق .. »

قلت : « وبور توفيق .. »

.. اهتزت الارض ، لم يعد انهيار البيوت يدهشني . عبرنا شريط السكة الحديد .

ـ « .. من مصر ؟!... »

.. تذكرت ماقاله الشابان الطويلان الشاحبان : « مصر العديقة» .. حاولت ان اخفف من خوفي .. قلت :

ـ « ارسلتني المجلة لاكتب لها عن مدينة الحرب .. » .. اردت ان اضيف ان مجلتي لاتهتم بغير نجوم الفن .. لكنني ابتلعت ذلك .. وابتسمت .

.. رفعت ذراعي لاتجه يسارا .. تابعنا سيرنا . تجاوزنا جامع سيدي الغريب. اقتربنا من القوارب المقلوبة على الشط .لفنا الصمت. رائحة الموت تملأ انفي . انفجرت الدانات قوية مخيفة هذه المرة . ارتعشت . التصقت المرأة بي ضممت الطفل اكثر الى صدري ..توالت الفرقعة . سألتها عن المخبأ بالحاح . قالت انها لا تعرف .

.. لم يكن هناك وقت للدهشة او للتساؤل . حاصرني الخوف.. وسحابات الدخان الاسود المشتعل تزيد من ذعري وانقباضي ..

.. جذبني الى القوارب المقلوبة . زحفنا تحت احدها . تكومت على نفسي . بذلت جهدي حتى لايصحو الطفل . « منذ اعوام تركت القاهرة الى قريتي . حبست نفسي في الدار نحو ثلاثة اشهر بجوار امي .. ثم اعادني الجوع الى عملي .. » ..

.. قالت :« بيضربو من الجبسات .. » واشارت باصبعها في الاتجاه الآخر ... خلف رأسها تماما . ملأ انفجار الدانات وصفير الصواريخ اذني .. ملأتهما تماما . « غطست مرة في ترعة «ام شوشه» انشغلت باطفاء عطشي .. كنا في شهر الصيام . تركت ابي يفتسل من التراب والعرق ويتوضأ .. قلت له ساستحم . وملأت بطني بالماء. عندما وقفت وراء ابي لنصلي « العصر » تلقلق الماء في بطني الخاوية وفضحني . »

لكزتني بيدها .. قالت :

ـ « خايف ..؟ »

ـ « ابدا ..! » واغمضت عيني . سيطرت على الرغبة في الانكماش .. بذلت جهدا حتى ابتسمت لها . كنت ارتعش . انشغلت بالتعرف على المكان .. تجويف القارب عميق ، به شباك صيد مهملة .. رائحة الاحتراق تملأ انفي . ظلال القوارب المقلوبة تتداخل وتتقاطع فوق رمال الشط . طقطقة الخشب واضحة .. كان ابي يقطع فرعا من شجرة الصفصاف ، احمله الى الدار نستدفيء به في ليالي الشتاء ..

..كانت مياه الخليج راكدة ، فوقها طبقة ممزقة من الزيت ومخلفات البواخر . رائحة البوار والهدد تملأ الافق وتحجب الرؤيا .

قلت : القوارب تحترق .

قالت : « ربنايستر ! ..» . كانت ترتعش .. جسدها ينفض .. كومت ساقيها ثم فردتهما . زحفت احدى قدميها والتصقت بقدمي . . شعرت اكثر بخوفها . نظرت اليها . لم اكن قد رايت وجهها بعد . في العشرين من عمرها . ممتلئة الشفتين والصدر والردفين مصفرة الوجه .. اذابت الدموع كحل عينيها .. صار هالة سوداء بجوار خديها . وكانت صديقتي تعتني بكحل عينيها .. ومرة زرتها في مسكنها ، لم تكن تتوقع ذلك . ارتبكت .اعتذرت لها، وشعرت بالاسف فعلا لانني رايتها بلا كحل في عينيها .

.. شرى الدفء قليلا في ساقي . امتدت يدها تربت على الطفل النائم بيننا . ضاقت المسافة بين ظلال القوارب .. قفزت عيني من فوق الرمال الى شعرها الذي فقد نظامه وتناسقه . . كان مهوشا حول وجهها وفوق كتفها وصدرها . رفعت قدمي ووضعتها فوق قدميها .. وعيناي في عينيها . بعد ثانية .. اهتزت خيوط الرؤية بيننا . وافزعتنا دانة مدفع مزقت اخشاب بعض القوارب اهتز قاربنا المنكفيء فوقنا . زحف الدخان والغبار ورذاذ الماء الى مخبانا فاغمضت عيني في استسلام . كنت دائما اشعر بالخوف كلما زارتني صديقتي في مسكني .. او اتصلت بي في عملي .

***

.. تناثرت الرمال حولنا .. لسعتني . نظرت الى عينيها وتبادلنا ابتسامة مهزوزة . كان ابي يزهو بي كلما رأى بنتا تشيل معي خط القطن .. تقطف من خطها لوزة ، ومن خطي لوزة .. وهي تغني « ياخولي الجنينة ..» .لكنه عندما كبرت وصرت اتمرد على العمل اجيرا في ارض التفتيش » كان يهددني بتطليق امي . في مرة رآني اغازل بنتا في غيط الذرة ـ وقت غذاء الانفار ـ فضربني واقسم بالطلاق ليشربن من دمي حيا اذا انا عدت الى ذلك .

.. ضممت الطفل الى صدري ومسحت على شعره . ارتعشت ابتسامتها المخطوفة .

« بيضربو من كبريت او الشط .. »

ـ « يعني بعيد ! .. »

« ابتسمت . كانت يدها فوق ذراعي التي اطوق بها الطفل .. ساقي كانت بجوار ساقها . ابتسمت لها . راودتني رغبة في ان احكي لها قصة قراتها عن حرب الهكسوس .. لكنها فاجأتني :

ـ « على فكره .. انت خايف ..

قلت : « جدا ..»

.. ضحكت ، وقالت : « رأفت لم يعد بخاف .. لو كان صاص كان لعب لعبة الـ .. بم بم .

قلت : هو صفير على الخوف .

قالت : « في يونيه » دخل تحت السرير وبال على نفسه ..»

صمتت فجأة .. غامت عيناها . انشغلت برأفت .. ضممته الى صدري وقبلته .« كدت افقد ابني حسام في حديقة الحيوانات » .

***

.. تذكرت كل شيء .. لحظة اللقاء . اردت ان اسالها عن زوجها .. عن بيتها .. نظرت اليها ، خجلت .. ترددت اخيرا قلت لها: « البقاء هنا مخاطرة ..

قالت : « هاجرت من عامين .. كان يزورني كل شهر . قال لي آخر مرة ان بيتنا انضرب ..»

.. اهتزت الارض .. رجتنا بعنف . ازداد التصاق اقدامنا . « سقطت عريشة البهائم عندما انكسرت العروق المسوسة . انهارت السقيفة وفوقها احمال من الحطب والدريس وقشر الذرة . انكشفت الخنافس ومرق ثعبان الى الزقاق . ولولت امي .. هرع الجيران وساعدوا ابي في انقاذ الجاموسة والحمارة من الموت .. يومها قالت امي ان العين اصابتنا .. وسخر منها ابي لاننا لا نملك فيهما غير ربع خلفهما ..»

قالت : كان متزوجا من امراتين غيري . رات الدهشة في عيني، فابتسمت وقالت : « كانت له زوجة في الزعفران .. وزوجة في المطرية .

ـ .. وانت في السويس . خطر لي ان اقول لها ان السويس وحدة الى حد غريب .

ضحكت .. وقالت : كان صيادا . زارني في مديرية التحرير من ستة شهور .. بعدها انقطعت اخباره . قلقت عليه ..»

.. توالت الانفجارات . اشتد اهتزاز الارض تحتنا . التصقت السيقان اكثر .. قبضت اصابعها على ذراعي . وعوى كلب ،واندفع تحت القارب .. صدم بي ،فاسرع الى القارب المجاور .. رقد يلهث، وعيناه تحدقان في عيني .

.. تلاصقت ظلال القوارب المقلوبة .. وامتزجت سحابات الدخان الكثيفة بظلام الغروب .. وتنهدت ايزيس . غمغمت بصوت خافت: « تمنيت ان يكون اهل او اقارب هنا .. « واضفت لنفسي : انني اكره العودة أو الكتابة للمجلة .. فكرت في اشياء كثيرة احكيها لها ..لكنني اكتفيت بالنظر الى عينيها ... كانتا في لون العسل الاسود المخلوط بالطحينة . قالت : باع البيت انقاضا .. وتركني !.

.. انفرست اصابعها برفق في شعري . احتوت راسي براحتها . قالت : « اهلي .. واقاربي .. كلنا لاجئون ..» ربت على شعرها المتناثر فوق صدرها .. ابتلت اصابعي بالعرق بين نهديها . « في شهر العسل .. اخذت زوجتي الى نزهة في النيل .. بللنا اصابعنا بماء النهر وتبادلنا تعويذة السعادة والخصوبة ..»

***

.. غمغمت في ارتباك .. اتعرفين :« هناك فرق كبير بين الحرب هنا ، وبين الحرب التي ارسلوني للكتابة عنها ..» خفتت الانفجارات، لكن الدوي ظل يملأ اذني .. تحول الى طنين عنيف .. ازدادت رغبتي في تدخين سيجارة . تذكرت « عم عزوز » العجوز .. بقال قريتنا الذي يبيع للناس بالاجل ويتقاسم معهم المحاصيل كل موسم .. ضحكت وقلت لها : « اتعرفين . كنت اشرب زجاجة بيرة دائما كلما اضطررت للادلاء برأي .. »

.. هزت رأسها .. وربتت بيدها على طفلها النائم في حضني ... وابتسمت . قلت لها واحساس بالاسى يفمرني :« فشلت عدة سنوات في ان يكون لي زوجة وطفل .. كنت اخاف ان يموتا جوعا ..

.. بعد لحظة ، احسست بطعم الصمت الذي يلفنا ...انسحب الكلب بعينيه البراقتين الى الطريق . تابعته .. وقف غير بعيد يبول ..ثم انكب يشمشم في الركام والهدد بحثا عن شيء يأكله ..

قالت انها تشعر بالجوع ، ومسحت وجهي براحتها . منذ عامين زرت امي في القرية . كانت امام الفرن تسوي ارغفة الخبز ..انحنيت اقبل يدها المعروقة فاحتوتني في صدرها ، وتركت اثرا من الدقيق والعرق على قميصي ووجهي وشعري .

.. قالت وهي تنهض :« سأشتري سندويتشات من شارع المحطة .. وسجائر .. » ثم اختفت في الظلام . هزني ذلك من الاعماق .ذات ليلة خرجت زوجتي لشراء شيء للعشاء،ضايقها احد الشبان فتشاجرت معه . قلت في نفسي لا بد ان اعترف لها بانني زوج واب لثلاثة اطفال ..

.. طال غيابها .. شعرت بالبرد يلسعني .قبلت الطفل ثم وضعت راسه فوق كومة الشباك الممزقة التي وجدتها في جوف القارب المنكفىء، وغطيته بقميصي . .وانا اهمس له بحكايات شبع الجوع الذي يفلبني كثيرا ويحاصر اولادي ... اخافني السكون المريب ..

فقلت للصبي النائم : اتعرف .ثم رويت له شيئا من شقاوة الاولاد ... ثم زحفت من تحت القارب .. جلست بجواره .. أسندت ظهري الى مؤخرته ووضعت يدي على دفته الخشبية المكسورة .... وفجأة تفتت الصمت ، واشتعل الظلام يلهب مدافع تقذف بشراهة من جبل « عتاقة » .

القاهرة — حسن محسب

دار دمشق تقدم

● **اخلاقنا واخلاقهم**
تأليف جون ديوي ـ ليون تروتسكي ـ جورج نوفاك

● **هل للانسان مستقبل ؟**
تأليف برتراند رسل ، تصوير ارنولد توينبي

● **الثورة التي لم تتم**
تأليف اسحق دويتشر

● **في سبيل نموذج وطني للاشتراكية**
تأليف روجيه غارودي

يصدر هذا الشهر

● **الحقيقة كلها**
تأليف روجيه غارودي

● **تاريخ الثورة الروسية**
(ثلاثة مجلدات) تأليف تروتسكي